الأستاذ بيرم كمال

مقياس المجتمع الجزائري وفعالياته

تخصص السنة الأولى ماستر حديث

لمحاضرة 2ا

الفئات الاجتماعية في الجزائرخلال العهد العثماني

سكان المدن

يبقى التاريخ الاجتماعي للجزائر محفوف المخاطر في الكتابة التاريخية بالنظر الى الرصيد اليسير الذي يشكل قاعدة الكتابة التاريخية وبالنظر الى المنحى الذي سار عليه التدوين التاريخي الأجنبي للمجتمع الجزائري، وفي ظل افتقاد المكتبة الجزائرية الى هذه القاعدة وسيطرت الطابع الاسطوري للتكوين المجتمع قد تكون الكتابة حول هذا الموضوع أولية .

أكدت الكتابات التاريخية حول المجتمع الجزائري والمغرب العربي عامة على كون الوحدات التي ظلت تشكل بنية المجتمع الريفي في الجزائر قبل الاحتلال، سواء كانت ناطقة بالعربية أو البربرية، وسواءكانت خاضعة للسُّلطة العثمانية أو ثائرة عليها، هي في أصلها قَبلية، واستمرت كذلك إلى بدايات القرن العشرين[1]. وبما أنّ المجتمع الجزائري هو جزء من الفضاء الجيو سياسي للمغرب فيمكن القول أنه ظلَّ إلى بدايات القرن العشرين، منظَّما تنظيماً قبلياً حادًّا. فقد كان أكثر سكّان البلاد عبارة عن مجموعات من القبائل، وكانت الوحدة الاجتماعية في الريف، تتمثل في القبيلة. وكانت القبيلةتكبر بالتحالف أو الغزو حتى تغطي منطقة بكاملها، وتصبح قوة سياسية وعسكرية يُحسب حسابها.

ظلَّت القبيلة طرفاً سياسيا مع السلطة المركزية العثمانية في الجزائر ولم تكن تستكمل تشكيلها إلاَّ في مواجهة التّحدي الخارجي باعتبارها وحدةً سياسيةً وعسكريةً، تتشكَّل ظرفياً في مواجهة الخطر الذي بترصدها عند حدودها إن القبيلة بهذا المفهوم، تتشكل من عائلة موسعة، تنضمُّ إليها عائلات أخرى، من أجل الدفاع عن مصالح مشتركة.وكلَّما كانت المجموعة على جانب من القوة، كلَّما زاد عدد العائلات التي تدخل تحت لوائها، وتتعزَّز الرَّوابط داخل هذه المجموعة بفعل المصاهرة. وبالتالي، يمكننا التأكيد على كون القرابة داخل القبيلة هي اجتماعية لا دموية. ويمكن التمييز بين الفئات الاجتماعية حسب الجغرافيا التاريخية البشرية للجزائر من حيث تشكل القبائل واستقرارها بين المناطق الجبلية والسهبية وبين ما هي مستقرة ومتنقلة ومن ثم تميز المجتمع بين آهل المدن وآهل الأرياف.

مجتمع المدينة او سكان الحضر:

اكدت معظم الكتابات التاريخية على ان غالبية سكان الجزائر العثمانية سكان ريف وتحتل الحواضر نسبة لا تزيد عن 10 ./.تميزت هذه الحواضر او المدن الجزائرية في العهد العثماني بتنوع العناصر الاجتماعية فيها، وسادت التركيبة الاجتماعية اختلافات عرقية ودينية ومذهبية مما جعل المجتمع الحضري يختلف اختلاف كبيرا عن المجتمع الريفي، هذا الأخير الذي كان يتميز بانسجام وترابط نسبي في تشكيلته الاجتماعية وهكذا فقد وجدت في المدن عناصر سكانية مختلفة شكلت كل منها فئة منفصلة عن الفئات الأخرى

فئة الحضر: يطلق على الحضر اسم "البلدية" أي المقيمين في البلدة، وهم السكان المتأصلين في البلدة أوالمدينة(، والذين يعودون في أصولهم إلى الفترة الإسلامية، وما انظم إليهم من أندلسيين وأشراف، مما جعلهم يؤلفون طبقة اجتماعية ميسورة ويشتغل أفرادها في المهن الصناعية الأعمال التجارية(2).

وقد ذكر "طال شوفال" أن نسبة فئة الحضر في **مدينة الجزائر** تتراوح ما بين 60% و65

، أي أنهم كانوا يشكلون أغلبية السكان، ولكن عند بعض المؤرخين اعتبروا أن "فئة الحضر" التي هي حقا متأصلة في مدينة الجزائر، تشكل أقلية مقارنة مع باقي سكان المدينة.وقد كان

الحضر هم العنصر المستقر في المدينة، وهم يشكلون القاعدة الاقتصادية والاجتماعية بسبب نشاطاتهم الاقتصادية والحرفية).

ومن أهم العناصر التي كانت تتشكل منها طبقة الحضر في مدن الشمال الجزائري الجالية الأندلسية وجماعة الأشراف بما فيهم العلماء والإداريين والتجارة والحرفيين.

الأندلسون: يشكلون فئة من السكان المحليين وهم الذين اعتاد العديد من الكتاب على تسميتهم بـ "المورسكيين"ورغم أن التواجد الأندلسي يرجع تاريخه إلى ما قبل استقرار الأتراك العثمانية بالمنطقة تكاثر عندهم مع مجيء الأتراك وتشجيعهم للجهاد البحري ضد النصارى وأصبحوا يؤلفون نسبة كبيرة من سكان المدن الساحلية).

وقد كان العنصر الأندلسي عاملا إيجابيا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية قبل أن تحد من نشاطه مضايقة الأتراك واستبدادهم.

وقد استقر الأندلسيون في إيالة الجزائر، وتوزعوا في بعض مدنها مثل البليدة التي امتلكوا فيها الأراضي وأنشأوا في شمال غربها مدينة القليعة، كما سكنوا مدن دلس وشرشال، عنابة التي سكن بها عدد كبير منهم، كما استقروا بمدن: أرزيو ومستغانم وتلسمان في غرب البلاد.وبالرغم من أن أغلب الأندلسيين كانوا يعتبرون أنفسهم في دار هجرة مؤقتة ويرتقبون الوقت الذي يتمكنون فيه من العودة إلى مواطنهم الأصلية، إلا أن تأثيرهم في المجتمع الحضري كان عميقا جدا ومس مختلف أوجع الحياة، وذلك لكونهم أكثر ثقافة وتطورا ونشاطا من باقي الجماعات الحضرية الأخرى.[3]

فبفضل نشاط الأندلسيين وثرواتهم التي حملوها معهم أو تحصلوا عليها من ممارسة التجارة والقرصنة، نهضت كثير من المدن من خرائبها بعد أن كادت تنقرض كشرشال والبليدة والقليعة، وازدهرت زراعة البساتين، وأدخلت مزروعات جديدة كقطن مستغانم، وعناب عنابة، كما أصبحت القليعة مشهورة بإنتاج الحرير الطبيعي.

وفي المجال الصناعي أقام الأندلسيون العديد من الورشات لمختلف الحرف كالحدادة والنجارة والخياطة والخزف والصناعة الجلدية والصناعة الحريرية.وفي المجال السياسي والعسكري ساهموا بما لديهم نم خبرات في تدعيم القوة الدفاعية للإيالة، وقد عمل هؤلاء أيضا في سلاح المدفعية حيث كانوا يصنعون السلاح والبارود، كما أنهم أقاموا منشآت دفاعية كبيرة، إذ بنوا خارج باب الواد غرب مدينة الجزائر برجا يسمى "حصن الأندلس".وقد استطاع الأندلسيون بفضل هذه الخدمات العسكرية التي قدموها للنظام العثماني بالجزائر أن يحصلوا على حق شغل بعض المناصب الإدارية، وهذا ما جعلهم عرضة لمنافسة فئات أخرى(.

كما أنهم أدخلوا إلى الجزائر بعض التأثيرات الإسبانية، كاستعمال العملة الفضية والذهبية التي كانت تضرب في إسبانيا، واستخدام بعض العبارات والمفردات الإسبانية التي أصبحت تتميز بها لغة التعامل مع الأجانب المعروفة بلغة "الفرانكا".

ولعل مقدار الضرائب التي كانوا يساهمون بها والأوقاف التي كانوا يحبسونها على الزاوية والمسجد الخاص بهم تدل على مدى غنى جماعة الأندلس، ففي مدينة مستغانم كانوا يتعهدون بتقديم 300 زياني ذهب للحكام كل سنة، وفي مدينة شرشال التي بلغ عدد منازلهم اثنيعشر ألفا، أما عدد الأوقاف الخاصة بهم فقد بلغت مع نهاية العهد العثماني حسب وثائق الأرشيف 40 ملكية و61 عناء "كراد سنوي" يصرف دخلها على المحتاجين منهم(

وقد مكنت الظروف الاقتصادية جماعة الأندلسيين على الاحتفاظ بتقاليدهم وعاداتهم، فقد كانوا يتميزون برقة الذوق والملبس والمتاع بالتفنن في العمارة والنحت والموسيقى والغناء(

فئة الأشراف: إن هذه الجماعة القليلة العدد والتي تتميز عن باقي الحضر بانتسابها إلى آل البيت حسب الروايات التي تناقلتها الكتابات الأجنبية وأطنبت فيها ، فقد اشتهر أغلب أفرادها بالورع والتقوى وهذا ما أكسبهم احتراما وتقديرا لدى الحكام وباقي السكان فخصهم بعض الدايات بالعطايا والمساعدات مثل الداي "محمد بقطاش" الذي أوقف لصالحهم بعض الأملاك، وقد اندمج أغلب أفراد هذه الجماعة في طبقة الحضر، فلم يعد ينتسب إلى الأشراف سوى بعض العائلات التي لم يتجاوز عددها 300 أسرة(.

فئة البرانية :إن كلمة برانية تشير إلى فئة أو مجموعة غريبة عن المدينة وقد أصبحت هذه الكلمة في الجزائر اصطلاحا إداريا يشير إلى الأشخاص الذين يقيمون في المدينة دون أن يكونوا حضريين، والأمر يتعلق بمجموعة تعود أصولها إلى مناطق مختلفة من البلاد وقد حافظ أغلب أعضاء هذه المجموعات على خصوصياتهم ولم يندمجوا مع السكان الحضر إلا في حالات نادرة.حيث تتألف مجموعات البرانية من المجموعات السكانية التي هاجرت من داخل البلاد إلى المدن الكبرى كالجزائر وقسنطينة، وتلمسان وغيرها للإقامة والعمل.وبشكل عام فإن البرانية هم عمال بسطاء توجهوا لسوق العمل وليس لديهم إلا مجهودهم العضلي، فهم مجردون من وسائل الإنتاج التقليدية.

وقد فرض عليها الوضع الاجتماعي ونوعية النشاط الاقتصادي في المدن أن تنتظم حسب أصولها الجهوية ومواطنها الأولى فكان هناك البساكرة، والجيجليونوالأغواطيونوالميزابيون والقبائل العبيد وغيرهم.وقد اختصت كل مجموعة بمهام وأعمال تقوم بها، وأغلب أفراد هذه المجموعة كانوا يشتغلون في مهن متواضعة ففي مدينة الجزائر، كانت تختص كل جماعة بمهنة متواضعة تشتهر بها، وللتعرف على أوضاع مختلف هذه المجموعات المهنية والطوائف العرقية المعروفة بالبرانية .

- **جماعة بني ميزاب**: ينسب إليها سكان قرى وادي ميزاب ومناطق الشعانيةوورقلة والقرارة، ويحتكر أفرادها في المدن الكبرى ولا سيما الجزائر وقسنطينة العمل في مطاحن الحبوب والحمامات هذا وقد تميزت جماعة بني ميزاب بتفانيها في العمل ونزاهتها وحرصها على إتقان العمل الموكل إليه، كما عرفت بإخلاصها للحكام ووقوفها بجانب الأتراك في صراعهم مع الكراغلة، هذا ما ساعدها على اكتساب ثقة الحكام والحصول على تعهدات وامتيازات مع نهاية القرن الثامن عشر.

- **الزنوج**: يدرج بعض الكتاب فئة الزنوج ضمن البرانية، وقد تواجدت هذه الفئة في عدد من مدن الإيالة مثل: الجزائر ووهران تلمسان وقسنطينة، وعلى العموم فإن الزنوج هم العبيد أو أصولهم من العبي، وكانوا يجلبون من دول إفريقية كثيرة كالسوادن والحبشة والنيجر، يتم

تعليمهم اللغة العربية وتلقينهم مبادئ الإسلام، وهذا ما يزيد من قيمتهم التجارية، وقد زادت أهمية الزنوج نظرا لكونهم مطلوبين بشكل خاص للخدمة في منازل العائلات الغنية. كما أنهم كانوا يدخلون ضمن الضرائب العينية التي كانت تقدمها بعض المناطق للسلطة العثمانية في الجزائر، فالأغواط مثلا: كانت تدفع ضريبة سبعة زنوج لداي الجزائر حتى يسمح لها بحق شراء الحبوب من التل.وبالنسبة للحياة التي كان يحياها هؤلاء الزنوج فهي أفضل بكثير من تلك التي كانوا يعيشونها في بلدانهم فغالبا ما ينتهي بهم الأمر بأن يصبحوا جزاءا من العائلة التي يعملون عندها فهم متواجدون في بلاد القبائل والبعض منهم قد غادر مدينة الجزائر متوجها إلى ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي للاحتماء بقربه، لكن هذا الوضع هو استثنائي ولا يحدث دائما وبصفة عامة فإن الزنوج يظهرون وفاء حقيقيا نحو أسيادهم .

ويزاول الزنوج الأحرار مهنة الجزارة وغالبا ما يكونون في خدمة المزابيين، كما مارس الزنوج أعمال البناء، وقد استفاد النظام العثماني من فئة الزنوج نظرا لصفات الطاعة والإخلاص التي كانوا يتميزون بها.وهكذا فإن الزنوج الذين شكلوا فئة غير متأصلة في المدينة قد تواجدوا بكثافة في عدد من المناطق، وقد عرف النظام العثماني كيف يستثمر هذه الفئة بما لديها من خصوصيات).

- **جماعة البساكرة**: تتكون من أهالي مناطق الزيبان ووادي ريغ وسوف وتوغرت، الدين قدموا إلى المدن الكبرى طلبا للعيش أوكل إليهم ببعض المهن المتواضعة والأعمال الشاقة.ويتولى شؤون جماعة البساكرة أمين يعرف لدى العامة "بالبسكري سيدنا" وهومع بساطة لباسه وتواضعه كان له نفذ قوي وكلمة مسموعة لدى الحكام، ومن حقه فرض الغرامات وتحديد الكراء الشهري لـ 24 دكانا تابعة لأفراد جماعته ويتقاضى من البايلك مقابل الإشراف على أفراد طائفته(.إن البسكريين الذين كانوا يقطنون في المناطق الجنوبية التي تقع على أطراف الصحراء، وذلك على الرغم من أنهم يتحدثون لهجة محرفة من العربية ويرجح أن يكون فرعا للجنس العربي (

. - **جماعة الأغواطيين**: ينتسبون إلى مدينة الأغواط، وإلى قبيلتي الزناجرة وأولاد نائل، وأغلبهم يتولى أعمال متواضعة مثل أعمال الوزن والكيل بأسواق الجزائر، وبيع الزيت ويشتغل عدد منهم بالتنظيف، ونقل البضائع وغيرها.

- **جماعة القبائل**: وهي فئة ينحدر أغلب أفرادها من المناطق الجبلية القريبة من مدن الجزائر وتلمسان والبليدة والمدية، وقسنطينة، للعمل في هذه المدن والاشتغال بالمهن البدوية والأعمال الزراعية بالفحوص وكان أغلب أفراد جماعة القبائل في مدينة الجزائر ينتسب إلى منطقة جرجرة "زواوة، ويتولى العمل في دكاكين بيع الزيت، أو يقوم بالحراسة يف الليل، والاشتغال في بناء السفن والمنازل وغيرها.ونظرا لكثافة سكان جرجرة وقلة مصادر الرزق بها فقد هاجر العديد من سكانها إلى مدينة الجزائر وضواحيها، حيث اندمجوا في السكان وأصبحوا يؤلفون أكثر من نصف مجموع البرانية.هذا ويلاحظ عن مجموع أفراد جماعات البرانية بما فيهم القبائل وبني ميزاب أنهم كانوا يتكاثرون في المدن الكبرى أوقات الرخاء.

-